المقاربة البلاغية لنظرية الحجاج

الباحث: عماري مالك

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

لقد أخذ الخطاب البلاغي مأخذه من كلام العرب شعره ونثره، واستطاع أن يجد له موطأ قدم ضمن المنظومة اللغوية آنذاك؛ لأن العرب وببساطة كان الكلام الجيد الحسن يسحرهم ويشدهم ويؤثر فيهم.

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية بفعل نزول الوحي ومجيء الإسلام تفتقت العلوم وعرفت ازدهارا معرفيا عظيما خاصة في المرحلة العباسية التي تلاقحت فيها مختلف الثقافات وأقواها تأثيرا الثقافة اليونانية. ومن هنا ولد الخط ودونت الكتب وسجلت الصحف وظهرت الترجمة.

ومع ظهور الهجمات الشعواء التي تجلت مظاهرها من خلال الطعن اللاذع للقرآن وبوادر فساد السليقة انتبه العرب إلى أنه لابد أن توضع قواعد وأصول لهذا الفن لكي لا يلحق به التحلل والضيم. فكثر في حقه التأليف وكثرت معه المفاهيم التي تناولت المسائل البلاغية فاستقرت علما له موضوعاته ومسائله يتجاذبها النقاد، وتولد عن هذا التجاذب قضايا بلاغية كبرى فما كان يتكلم به سليقة وعفويا أصبح علما تأصيليا.

وتوازيا مع البلاغة عرف العرب نمطا آخر من الخطاب ارتبط بالحجاج، والذي يعتبر حقلا معرفيا حديثا من حيث الاصطلاح والتقعيد قديما من حيث الممارسة. فمعرفتهم به وبالخصوص ازداد الاهتمام به كإجراء تطبيقي في العصر العباسي فارتبط بالإقناع والتأثير الذي كان وليد الاتجاه المنطقي والفلسفي في الفكر النقدي العربي قديما بفعل عنصر التثاقف مع الأمم المختلفة.

ومنه فقد نجد أنفسنا أمام علمين متداخلين فالبلاغة قديمة ممارسة وتأصيلا، والحجاج قديم ممارسة حديث تأصيلا. وهذا بالطبع يحيلنا إلى أن الغرب هم من أسسوا للفكر الحجاجي تأصيلا في عصر النهضة من منطلق الخطاب البلاغي اليوناني القديم والذي مثلته بالخصوص المدرستين السفسطائية والأرسطية.

وعلى ما تقدم نجد أنفسنا أمام إشكالية مفادها: أنه لولا استحداث هذا العلم من طرف الغرب لما راودتنا الفكرة ربما على الحديث على هذا الفضاء المعرفي وربطه بالبلاغة العربية، وعليه تكون الدراسة التي نسعى إلى تحقيقها مجرد مقاربات وإسقاطات تنظيرية لمفاهيم نقدية في تراثنا البلاغي وحملها على ما عرف بنظرية الحجاج أو البلاغة الجديدة، وعلى إثرها تكون الاستنتاجات التي نود عرضها هي إلى الاحتمال أقرب منها إلى الإمكان. وتكون النتيجة بلا شك مجرد أطروحات فلسفية تلبس القديم حلة الجديد تتناسب معها من حيث المفاهيم والغايات المشتركة والآليات المستعملة دون الإخلال بالمفاهيم الأصيلة في موروثنا النقدي البلاغي.

ومن هنا نتساءل: ما هي الخيوط التي بتجميعها يمكننا أن نؤصل إلى تلك النظرية الحجاجية من منطلق أو منظور بلاغي ؟

1 – البلاغة والخاصية الميتا مفاهيمية:

بداية وقبل الخوض في هاته المقاربة يجب أن ننوه إلى القول بأننا اقتصرنا على بعض ما جاء من مفاهيم بلاغية على سبيل التمثيل والتدليل لا على سبيل الحصر، فما ذكر في ثنايا المؤلفات التراثية أكثر من أن يحصى ويعد. وانطلاقا من التبعيض نستطيع أن نستشف تلك المقاربة البلاغية الميتا مفاهيمية التي تقربنا أو تعطينا مفهوما مغايرا لما نتعاهده من مفاهيم تقليدية سطحية.

لقد ساهم النحاة والنقاد والبلاغيون والأدباء والمتكلمون في بناء صرح البلاغة العربية التي ورثناها بصبغتها الحالية من خلال ممارسة العرب لفن البلاغة منذ أمد بعيد. وننـــوه هنا إلى التفريق بين البلاغة كمادة، وبين البلاغة كأسلوب، وبين البلاغة كعلم، وبين البلاغة كفن؛ أما مادة البلاغة فهي أقرب إلى التقنين منها إلى الشرح والتفسير، وأما أساليب البلاغـة فهي تعنى بوسائل التوصيل، وأما علم البلاغة فهو التصنيـف والترتيب وانتظام ومنطق، وأما فن البلاغة فهو الذوق والجمال والتحليل، ولا غنى عنهم جميعا[1] .

ولعل الجاحظ من الأوائل الذين اهتموا بهذا الفن وقدم لنا مفاهيم متنوعة عن البلاغة بتنوع ثقافات الأمم الأخرى التي أخذ عنها تلك المفاهيم المتعلقة بالبلاغة خاصة في كتابه البيان والتبيين؛ ربما لاطلاعه الواسع وكثرة قراءته للكتب المترجمة عن اليونان والهنود والفرس. وفي هذا المقام يقول ناقلا عن ابن المقفع أنها: "اسم جامع تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت؛ ومنها ما يكون في الاستماع؛ ومنها ما يكون في الإشارة؛ ومنها ما يكون في الحديث؛ ومنها ما يكون في **الاحتجاج**"[2]. ولما سأل عمرو بن عبيد قال: "إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة في الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم (...)كنت قد أوتيت فصل الخطاب"[3]. وقوله عن الهندي: " جُمَّاع البلاغة، البصر **بالحجة***، والمعرفة بمواضع الفرصة"[4]. والبصر بالحجة يوضحه أبو هلال العسكري بقوله: " كان أبو الأسود شيعة لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكان جيرانه عثمانية فرموه يوما؛ فقال: أترمونني؟ قالوا: بل الله يرميك. قال: كذبتم، إنكم تخطئون، وإن الله لو رماني ما أخطأ"[5]. والشاهد من إيراد هاته المناظرة وغيرها أن البلاغة هي البصر بالحجة؛ والبصر بالحجة يكمن في القدرة على سرعة استحضارها متى أردت وفي أي سياق شئت، وكأنها في مرمى من بصرك.

وأمّا الرمّاني (ت: 386هـ) فالبلاغة عنده بالمعنيين: صفة للكلام الجيد، ومعنى البيان جميعا يقول: "وليست البلاغة إفهام المعنى(...) ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى(...) وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[6]

وبذلك حدد الرماني جوهر البلاغة بتحققها من خلال بعدين: الأول بلاغي حجاجي والثاني أسلوبي تداولي؛ فمعنى (إيصال المعنى إلى القلب) يأخذ بعدا بلاغيا حجاجيا أي التأثير والإمتاع والإقناع، ومعنى (أحسن صورة من اللفظ) يأخذ بعدا أسلوبيا تداوليا من خلال تلك التحولات البنيوية داخل الخطاب والتي جسدها عامل اختيار للألفاظ والتراكيب وحسن التصوير وإجادة السبك وحياكة للأساليب.

وكما أن مفهوم البلاغة عند "أبي هلال العسكري" (ت: 395هـ) بمعنى البيان يقول: " والبلاغة هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى "[7] فكذلك لم يغفل المعنى الثاني والذي يرتبط بالحجة يقول: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[8]. والتمكين هنا لا يكون إلا بالحجة. وبالتركيز على هذين التعريفين نجد أن أبا هلال العسكري جمع بين الجانب التأثيري الإمتاعي والجانب الإقناعي. كما أنه لم يقتصر على هذين المفهومين يقول نقلا عن عبيد الله بن عتبة: "البلاغة دنو المأخذ وقرع الحجة.." [9]. وقال أيضا: "البلاغة التقرب من المعنى البعيد، والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجاز في صواب، وقصد إلى **حجة**، وحسن استعارة"[10]. وقال: " البلاغة قول مفقه في لطف؛ فالمفقه: المفهم، واللطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستصعَبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجة"[11].

وما كاد هذا العصر يشرف على نهايته، ويجيء القرن الخامس هجري، ظهر عبد القاهر الجرجاني (ت: 471 هـ) فأخذت البلاغة على يده تؤتي أكلها وتنحوا منحى آخر، منحى تذوق النصوص وإبراز الجمالية، باستخدام منهج خاص مزج فيه بين الفلسفة الكلامية والجدل المنطقي، والروح الأدبية والقدرة على النقد وصنعة الكلام، ثم مضى يجمع تلك الملاحظات ليخضعها لضرب من التحليل العقلي والنفسي البصير، فأسس لنظرية مرتبة مفصلة عرفت بنظرية النظم.

ونلاحظ أن فهمه للبلاغة على أنها النظم جاءت بمفهوم ترتيب المعاني في النفس، لا ترتيب الألفاظ في النطق وهي صنعة يستعان عليها بالفكر والروية[12]. فنظرية النظم التي قدمها "عبد القاهر" وأجرى عليها تطبيقا منقطع النظير أراد من خلالها أن يلفت انتباهنا إلى أن هناك طاقة كامنة في اللغة لا بد من تفجيرها ليتراءى لك في النهاية أن الخطاب هو حجة دون الحاجة إلى الاستعانة بحجة. فما أصّل له "عبد القاهر" من تلك القضايا التي عرفت عنده بمعاني النحو ومعنى المعنى وتلك القدرة على التصوير وقضية نفي المزية عن اللفظ المفرد إذا لم يتضمنه سياق جامع قد أصبحت تأخذ بعدا تداوليا حجاجيا في مفهوم عبد القاهر للبلاغة.

والإقدام على بسط كل هاته المفاهيم البلاغية والتي لا تكاد تحصر ولا تعد الغاية منها بيان اهتمام العرب بالبلاغة التي كانت مثابة الحجة الكلامية المتداولة آنذاك والأكثر انتشارا من خلال المناظرات والمحاورات والخطب الدينية والكلامية والسياسية. والتي تصب في القالب نفسه الذي يصب فيه الخطاب الحجاجي من حيث الغاية المراد تحقيقها في الخطاب "إلاّ أنهم كثيرا ما كان يفوتهم وضع الأدوات التي يتخذونها وسائل للبرهنة والإقناع"[13].

وقد ذهب البعض بالقول أن البلاغة مدعاة للزينة والتباهي والصنعة، كالذي أثاره "محمد صمّود" من أن البلاغة قد فرغت من كل حجة ورأي واستدعت انكماش القول. فإذا سلمنا بهذا القول أليس تلك الزينة والتباهي بضروب الكلام والتنوع فيه وتلك المهارة في ربط الصور بالمعاني وتقديمها في قوالب من الألفاظ والتراكيب المتسقة انتصارا للعقل قبل أن يكون انتصارا للغة، ومناطا للاحتجاج قبل أن يكون مناطا للذة والمتعة. فالفكر البلاغي العربي القديم ليس كما يصوره البعض على أنه قاصر في بلوغ غاية الإقناع منطوي في زاوية اللذة والإمتاع، بل هو نفسه فكر حجاجي تتجلى معالمه من خلال عملية عقلانية متنامية عبر اللغة والذات والموضوع والشيء والواقع.

فاللغة تفاعل للبنية اللفظية داخل الخطاب متجددة موجودة، والذات تفاعل للعقل والوجدان داخل حيز الوجود وهي متجددة موجودة، والموضوع تفاعل للواقع داخل حيز الذات وهو متحرك موجود، والشيء موجود ثابت غير متجدد، والواقع مستمر في تجدده في عملية الوجود وهو موجود.

وعليه فما قدم من حدود للبلاغة فيه إيحاء إلى أن البلاغة ليست فقط تقنية تفاعل البنية اللغوية داخل الخطاب من منطلق ذوقي انطباعي قصد الإمتاع والتأثير بعيدا عن العقلانية. صحيح أن العرب عرفوا بالصنعة الخطابية من منطلق الذوق السليم والحس المرهف ولكن هذا لا ينفي اعتماد العقل في بناء ذلك التفاعل للبنية اللغوية داخل الخطاب، وهذا ما جعل من الخطاب يزداد تماسكا وقوة ومثّل بذلك ظاهرة حجاجية مستبقة. وتأسيسا عليه يصبح مفهوم البلاغة وسيلة عقلانية للإقناع الفكري ويكون الأداء الفني وما به من وسائل جمالية خاضعة لذلك المعنى؛ وعليه تكون البلاغة هي عملية حجاجية محضة.

2- الصور البيانية وخاصية التحول:

لم تقتصر البلاغة على تلك المفاهيم التقليدية السطحية كما أشرنا من قبل، ولا على تلك التقسيمات المنطقية التي اكتملت ونضجت معالمها مع "السكاكي" والتي عرفت بعلم المعاني والبيان والبديع. بل نجد أنها تعدته إلى خاصية أخرى تمثلت في تحول تلك الأساليب من القول إلى خاصية الحجية والإقناع، وهذا ما سعى إليه البلاغيون القدامى. فعبد القاهر مثلا يقول في هذا الصدد: "فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت في مكانه، كان موضعه من الكلام أضمن به، وأشد محاماة عليه، وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر بالتشبيه فأمر التخيل فيه أقوى، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم"[14].

وقد ربطها "ابن وهب" بالحجة يقول: "وهو إذا جاء في أعقاب المعاني.. ضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها فإن كان مدحا كان أبهر وأفخم(...)وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر"[15].

في حين نجد أن أبا هلال العسكري يتحدث عن التذييل وهو لون بديعي على أنه: " أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، ومجراه التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته"[16]. ومعنى كلامه هذا أنه يضعه في مصاف الاستشهاد والاحتجاج ولا ينظر إليه بتلك النظرة المقصورة على معنى التطريز والديباجة بل على المعنى المتعلق بزيادة الحجة وغاية الإقناع.

وقد اهتم العرب بتلك التشكيلات البلاغية وبالأخص الصور البيانية كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وربطوها بالخيال وأبدعوا فيها وصاروا يتفننون في تقديم الأجمل والأغرب منها لإبراز الشعرية اللغوية ولسلب عقول جمهور المتلقين. واعتبر النقاد أن هذا التنويع في تصوير المعاني بطرق مختلفة جاء طلبا لتحسين الكلام والتوسع في اللغة. لكن

ما يلاحظ أن القيمة الخطابية للبلاغة العربية لم تقتصر على تلك الاهتمامات بالصور البلاغية من حيث هي صور مجردة غايتها التوسع في الكلام وتحسينه؛ إنما قيمتها تجسدت في تلك التحولات إلى خاصية أخرى مرتبطة بزيادة حجية الخطاب وقوة إقناعه انطلاقا من نوع الصورة وكثافتها.

وعليه فالتصوير البلاغي أصبح ذا مظهر حجاجي يتحول بفعل طبيعة البلاغة في حد ذاتها، فالبلاغة الخطابية ليست بلاغة صورة فقط إنما هي بلاغة فكرة؛ لأن ذلك التصوير للمشاهد والاستحضار للوقائع لا يكون إلا وليد الإمعان والتفكير والروية وهذا هو عين المحاجة التي تدفع بالسامع إلى التأثر والإقناع. وتعتبر هاته العملية الدفعة التي "فتحت أمام عودة الخطابة ورجوع وظيفة الإقناع والتأثير... وإحداث التأثير بأساليب متنوعة، منها ما يقوم على بلاغة الصورة ومنها ما يقوم على بلاغة الخطاب الفائقة التأثير"[17].

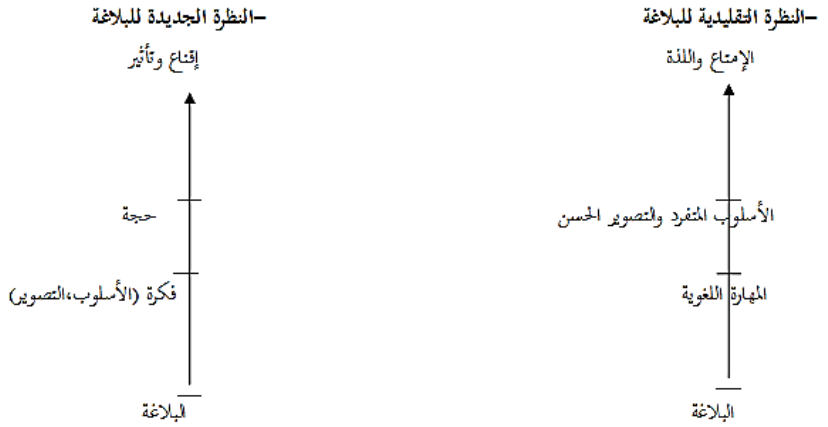

ولما كانت البلاغة المدخل لنظرية الحجاج -وإن كانت قد تأخرت عن علم البلاغة في الوجود من حيث التأصيل والتقعيد- فقد سعى الكثير من العارفين بالدرس الحجاجي وأبرزهم (شاييم بيرلمان) على التأكيد: "بأنه فوجئ وهو يسعى إلى وضع منطق للقيم يوازي المنطق الصوري الرمزي بأن ما كان يبحث عنه موجود في علم قديم اسمه البلاغة"[18].

ومن هنا تأتي الصور البيانية كأساليب حجاجية "بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية، من هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولانجاز مقاصد حجاجية"[19] .

وأمام هذا التنوع في التشكيلات البلاغية عموما والأساليب البيانية الأخرى خصوصا وقع اختياري على أسلوب الاستعارة من بينها كلها لسبب كونها الأقوى درجة في السلم الحجاجي والأكثر إقناعا وتأثيرا وإمتاعا.

الاستعارة: هي استعمال اللفظ في غير المكان الذي وضع له لعلاقة المشابهة- أي هو تشبيه حذف أحد طرفيه المشبه أو المشبه به- وهذا التجاوز يكون بقرينة تدل على عدم إيراد المعنى الأصلي وإلا أصبح اللفظ حقيقة. والاستعارة: " ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"[20].

مثلا:واجهت ليثا في ساحة الوغى ← استعارة
المشبه به ← ليثا
المشبه ← رجل (محذوف)
في ساحة الوغى ← القرينة اللفظية
وجه الشبه ← الشجاعة(محذوف)
أداة التشبيه ← الكاف أو مثل .. (محذوفة)
و أصلها ← واجهت رجلا شجاعا كالليث في ساحة الوغى

فالاستعارة حققت غايتين: الأولى الإيجاز والثانية المهارة في إبراز المعنى لغاية التأكيد والتشديد على شجاعة الرجل. وعليه تصبح الاستعارة ضرب من القياس؛ والقياس: "عملية فكرية ينعكس فيها على ما وضع من قواعد وشروط من ذاته يعتبرها أصدق صورة

للاستدلال العقلي"[21]. أي حمل فرع على أصل لعلة جامعة بينهما؛ والعلة هي مناط الحكم والحكم هنا الشبه الذي يقع عليه الجمع بين المعنيين والذي يحدده العقل ويضبطه المنطق ويحركه الذوق؛ وهذا الجمع بين الشيئين لا يتأتى إلا من حذق ماهر محاج.

والاستعارة عمدة الخطاب البلاغي وأبرزها قيمية وهي: "من الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جدا، ما دمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية"[22].

ولا يشك أحد أن الاستعارة تتصدر السلم الحجاجي مقارنة بالقول العادي. فلو قلنا مثلا: خالد شجاع -كلام عادي- لما أمكن للمتلقي أن يتصور شجاعة وبسالة خالد بتلك الصورة التي لو أننا قلنا: خالد أسد -استعارة-. لماذا؟ لأن النفس البشرية تميل للأمور الأغرب، وللأشياء الغامضة تكون أقرب، وقناعتك للمعهودة منها أبعد، وقد عقل العرب هذا فكانوا يتفننون في تصوير المعاني ونظمها في تراكيب تليق بها حتى يكسبوا القلوب ويستميلوا النفوس ويقنعوا الأذهان والعقول.

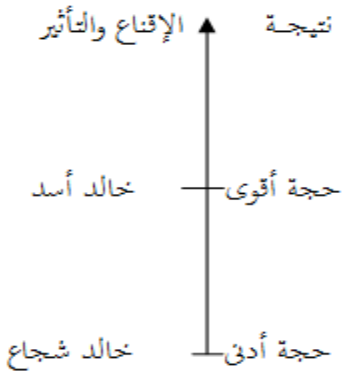

وتعليقا على هذا المخطط نجد أن الإخبار حاصل في الضربين من الكلام: خالد شجاع وخالد أسد، لكن القول الثاني أشد إقناعا وتأثيرا وأقوى حجة وتبصرة والسر يعود إلى خاصية الغموض. فكلما أُعمِل العقل في النظر إلى المعاني وتوقف الذهن وتأمل في ما تحويه

المباني، اتسعت رقعة الخيال ولقيت النفس استحسانا ووجدت لها متنفسا ووقعا ولذة، وهنا تترسخ الفكرة ويحصل الاقتناع.

وهذا ما أكده عبد القاهر في قوله: " تنظر إلى قول الناس: (الطبع لا يتغير) ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه؛ فترى معنى غفلا عاميا معروفا في كل جيل وأمة، ثم تنظر إليه في قول المتنبي:

يُرادُ مِن القلبِ نِسْيانُكمْ ** وتَأْبَى الطِباعُ على النَّاقِلِ

فتجده قد خرج في أحسن صورة، وتراه قد تحول جوهرة بعد أن كان خرزة، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئا "[23].

فالمفاضلة التي أرادها عبد القاهر هي المعنى الثاني الذي يطلب بواسطة وتلك الواسطة هي الفكر فيبرز المعنى في أبهى الصور وأليَقها ليعطيها بعدا آخر لا يستشفه إلا ذو فطنة سليقية وذائقة حساسة وشعور متدفق وخيال واسع وتكون بالطبع نتيجته الاقتناع.

وبالتأكيد على أن الاستعارة قوة حجاجية تعلو السلم الحجاجي مقارنة بالخطاب العادي يضاف إليها خاصية أخرى أنها فوق الإبطال؛ أي "عدم ورود دليل مضاد بعد القول الاستعاري يخدم النتيجة المعاكسة"[24]. وهذا الذي ما أكسبها أيضا خاصية حجاجية إضافية.

فلو قلنا مثلا: زيد شجاع لكنه متهور

زيد شجاع لكنه متهور ⟵ جملة عادية خالية من الاستعارة

لكنه ⟵ رابط حجاجي

النتيجة ⟵ السياق الذي جاء بعد الرابط مقبول(متهور)

ولو قلنا مثلا: زيد أسد لكنه متهور

زيد أسد لكنه متهور ⟵ جملة فيها استعارة

لكنه ⟵ رابط حجاجي

النتيجة ⟵ السياق الذي جاء بعد الرابط غير مقبول(متهور)

ومن هنا تكون التشكيلات والتنوعات في الأساليب البلاغية هي تنوعات في التقنيات الحجاجية التي يقدمها المخاطِب حسب نوع كل تقنية وترتيبها من حيث السلم الحجاجي، وأيضا حسب كثافتها وتلونها داخل الخطاب البلاغي وهذا لا يتحقق إلا بعنصر أهم في العملية التخاطبية وهو ما يعرف عند العرب والغرب قديما وحديثا بالمقام.

3- قيمة مراعاة مقتضى الحال:

اهتم العرب بالمقام فكان المحور الذي تقوم عليه العملية الخطابية، وأصبح مدار مفهوم البلاغة عندهم مرتبط بمطابقته لمقتضى الحال؛ فدرجة مستوى المستمعين هي التي تجعل من الخطاب يأخذ مسارات متعددة ومختلفة من حيث اختيار للألفاظ والتراكيب والصور وترتيب للحجج.

ولذلك نجد أن العرب مثلا قسموا الخطاب الخبري من حيث كيفية إلقاءه إلى ثلاثة أضرب بحسب حال المخاطَب:

- إما أن يكون خالي الذهن من الحكم، فلا يستحق التأكيد، ويسمى هذا الضرب من الخبر ابتدائيا.

– إما أن يكون مترددا في الحكم طالبا لمعرفته، فيستحسن تأكيد الكلام بمؤكد واحد لتقوية الحكم، ويسمى هذا الضرب من الخبر طلبيا.

– إما أيكون منكرا للحكم فيجب تأكيده بمؤكدين أو أكثر، ويسمى هذا الضرب من الخبر إنكاريا[25]؛ لأنك إذا أردت إقناع المخاطَب المنكر للخبر وأوردت له ذلك الخبر من دون تأكيد كان كلامك قاصرا لا يرقى لدرجة الإقناع، وبالضرورة يكون الخطاب لا قيمة له، ومن وجهة نظري أن هذا الذي دفع البلاغيين القدامى بالتركيز على المقام وأكثروا من الكلام فيه حتى عجت مؤلفاتهم به، لكننا ولسبب عدم الاطراد نورد وبإيجاز إلى ما تتحقق به الغاية ويصل إلى الإنجاز. فالجاحظ مثلا يورد عن إبراهيم بن مسلم قوله: " يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع(...) وقال: جِماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول"[26]. أما أبو هلال العسكري فنجده يورد قولا لحكيم الهند أن: " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخير اللفظ، يكلّم سيد الأَمَة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة(...) ومدار الأمر على إفهام كلّ قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم"[27].

ويفسر أبو هلال قول الحكيم بأن: " قوله: (ولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة) لأنَّ ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كلِّ واحد منهما من الكلام . وأحسن الذي قال: لكلِّ مقام مقال"[28].

وعندما نتحدث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال يجب أن لا نغفل الجانب الأهم في المسألة وهو الجانب الذي يتعلق بالحجية؛ لأن عدم مطابقة الكلام لمقتضى الحال إضعاف من

حجية الكلام، ولذلك أكد العرب على انتقاء أحسن الألفاظ وأجود المعاني وألطف العبارات لمن كان ذوقه يرقى بمستوى فني جمالي، وإلا كان الكلام كمن ينثر الدُّر على سارحة الغنم.

ولم يكن القدامى بدعا في هذا المذهب بل إننا نجد البلاغيين المعاصرين يعتبرون: "المقام البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مهارات برهانية وحقائق فعلية وقرائن وقيم بشتى أقسامها وعلاقة هذه القيم بمراتب الكائنات والأشخاص المعنيين بخطاب ما "[29].

ويذهب "محمد طروس " إلى أن كل نوع خطابي يماثله نوعا خاصا من المستمعين. فإن هذا يحتم على الخطيب أن ينوع من تقنياته الحجاجية والخطابية وحسب كل نوع[30].

وكما نجد أن المقام هو قطب الرحى التي تحوم عليه الأساليب البلاغية من صور بيانية وألوان بديعية وما تضمنه علم المعاني من خبر وإنشاء وتقديم وتأخير وذكر وحذف .. نجده أيضا يتحكم في العملية المرتبطة بتشكيل العناصر البلاغية وتداولها من عنصر إلى آخر أو من حيث الذكر أو عدمه أو من حيث الترتيب أو التكثيف من تلك الأساليب حسب المقام. وكذلك لا يعدم أن نجده في الأغراض البلاغية فمقام الفرح يستوجب المدح أو الغزل، ومقام القرح يستوجب الرثاء وهكذا..

وكما أن المقام ساهم بدلوه في تشكيل العناصر البلاغية داخل الخطاب لا غرو أن نجده قام بنفس فعل التشكيل للعناصر الحجاجية لأن: " المقام هو الذي يمنح الكلمة الملقاة والأخرى المكتوبة دورها ومكانتها بغض النظر عما تحملانه من شحنات دلالية أو معنوية قبلية"[31]

فالبلاغة العربية إذا لم تقتصر على البعد المتعلق بالتزيين والتنميق والصنعة أو بالأحرى فن القول كما ذكرنا آنفا بل يسعى إلى تعديل وتغيير قناعة المخاطَب والتأثير على موقفه اتجاه

قضية ما؛ " فالبلاغيون العرب لم يهتموا كثيرا بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي، حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال، ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين"(32).

كما لا نغفل مع مراعاة الكلام لمقتضى الحال مجموعة المشتركات بين المخاطِب والمخاطَب التي تكمّل العملية الحجاجية كمشترك اللغة والاعتقاد والثقافة والمجتمع والبيئة والتاريخ. والخروج على هاته المشتركات قد يورث الغموض وسوء الفهم وهذا مؤداه حتما أن العملية الخطابية تكون وليدة العدم ولا طائل منها. فالتكلم بشيء ما هو حال تفاعله اللغوي وترتيبه الحجاجي داخل النفس بآليتين معنويتين هما العقل والوجدان ثم تأتي عملية التلفظ كآلية إجرائية ميكانيكية تتم وفق ذلك النظام النفسي، وهذا التفاعل اللغوي الحجاجي نفسه التفاعل اللغوي الحجاجي بآليتي العقل والوجدان أثناء وقوعه في نفس المخاطَب مع الأخذ بتلك العوامل التي ذكرناها كعامل مراعاة مقتضى الحال وتلك المشتركات بين المخاطِب والمخاطَب، ومن هنا تتحقق الحجية ويصل الخطاب إلى غاية الإقناع والتأثير. وهذا ما يوضحه المخطط التالي:

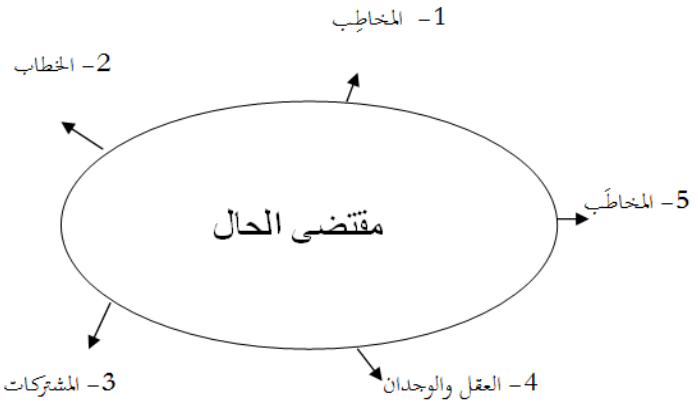

وجملة الأمر أن البلاغة والحجاج متلازمتان متكاملتان غير متعارضتان. متصلتان اتصال الفرع بالأصل؛ ولعل هذا التلازم مرده إلى أن اهتمام البلاغة لم يقتصر بالجانب الذوقي الجمالي إنما تعداه إلى الاهتمام بالجانب التداولي الإقناعي، ذلك أن الحجة أمر فطري لا يخلو من ذهن إنسان وقلب عاقل ووجدان متكلم لاعتبارات منها: أن سلطة الحجاج من سلطة الكلمات والتراكيب وسلطة التراكيب من سلطة العقل والوجدان.

مراجع البحث وإحالاته:

1ـ ينظر، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر، ط1، 2003م، ص: 34 .

2ـ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، مج1، ص: 116.

3ـ المصدر نفسه، مج1، ص: 114.

4ـ المصدر نفسه، مج1، ص: 88.

5ـ الصناعتين في (الكتابة والشعر)، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تح: علي محمد بجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د، ط)، 1986م، ص: 16.

6ـ النكت (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، تح: خلف الله وزغلول سلام، دار المعارف، مصر، 1968م، ص: 69.

7ـ الصناعتين في (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، ص: 8 .

8ـ المصدر نفسه، ص: 10.

9ـ المصدر نفسه، ص: 16.

10ـ المصدر، نفسه، ص: 47 .

11ـ المصدر نفسه، ص: 51.

12ـ ينظر، تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، دار الخلود للتراث، مصر، ط1، 1983 م، ص: 186 – 217.

13ـ نظرية البلاغة، عبد الملك مرتاض، دار القدس العربي، الجزائر، ط2، 2010م، ص: 52

14ـ أسرار البلاغة، أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991م، ص: 279.

15ـ المصدر نفسه، ص: 92.

16ـ الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 416.

17ـ من تجليات الخطاب البلاغي، حمادي صمّود، دار قرطاج، تونس، ط1، 1999م، ص: 133.

18ـ الحجاج (مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، علوي حافظ إسماعيل، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010م، ص: 20.

19ـ التداولية والحجاج ومداخل ونصوص، صابر الحبّاشة، صفحات للطباعة والنشر، سورية، ط1، 2008م، ص: 50.

20ـ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 20.

21ـ المنطق الصوري منذ أرسطو إلى اليوم، علي السامي النشار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 1955م. ص: 374.

22ـ اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، درب سيدنا، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص: 105.

23ـ دلائل الإعجاز، أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط3، 1993م، ص: 423 .

24ـ اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص: 106.

25ـ ينظر، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، تح: حسن حمد، دار الجيل، بيروت، (د، ط)، (د، تا)، ص: 42-43.

26ـ البيان والتبيين، الجاحظ، مج1، ص: 87-88.

27ـ الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 19-20.

28ـ المصدر نفسه، ص: 27.

29ـ مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين، مجلة عالم الفكر، ع1، مج34، 2005م، ص: 83.

30ـ ينظر، النظرية الحجاجية، محمد طروس، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005م، ص: 16.

31ـ مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين، مج: 28، ع3، ص: 83.

32ـ في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، دار الثقافة، دار البيضاء، ط1، ص: 18.